الفصل السابع

عالمية الأدب الدعوي النورسي

- سعيد النورسي ورسائل النور.. طريق جديد
- الأسس الفكرية لعالمية الأدب عند النورسي
- رفض النورسي للآداب العنصرية واللادينية

obeikandl.com

obeikandl.com

عالمية الأدب الدعوي النورسي

سعيد النورسي.. ورسائل النور: طريق جديد

منذ نزل القرآن في السنة لأولى من البعثة (٦١٠م) على محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام في مكة المكرمة، وهو يُتلى من كل المسلمين على تعاقب العصور، فيجدونه في كل قرن وعصر غضا طريا كأن عهده بالوجود أمس، كما قال أحد المستشرقين...

ومهما قرأ المسلم في كتاب الله.. المئات أو الآلاف من المرات فإنه في كل مرة يجد فيه متعة جديدة وذوقا جديدا وفكرا جديدا، وفي بعض الأحيان -ولاسيما في ساعات الاندماج في فهم القرآن والتألق الروحي- تتجلى للقارئ بعض الآيات التي قرأها مئات المرات قبل ذلك، فتبدو له وكأنه يقرؤها لأول مرة...

وبعض المجددين، من ذوي الهمم العالية والنفوس الذكية، تبدو لهم آفاق القرآن الكونية والإنسانية والحضارية على نحو يسمح لهم بقراءة خاصة للقرآن، تنطلق من داخل القرآن لا من خارجه، وتنطلق من إيمانهم العميق به وولائهم له وليس لغيره، أو لتحريف كلمة عن مواضعه أو تأويله بما يخالف قواعد اللغة المعجمية المعروفة، والمجمعية المعتمدة من ذوي الاختصاص وأهل الذكر...

هذا البعض المجدد تبدو لهم آفاق كونية وإنسانية وحضارية في القرآن لا يستطيع الوصول إليها من لا يملكون العقل والقلب الرفيعين... فيقدم هؤلاء المجددون للناس قراءتهم وفقههم للقرآن بروح جديدة تقود إلى النهضة الروحية والعقلية الحضارية.

إن القرآن الذي يقدمونه كتاب عقل وفكر، لكنه -في الوقت نفسه- كتاب تربية نفسية ووجدانية وذكر لله وعبادة له... وهو -أيضاً- كتاب علم -بالمعنى

الكامل لكلمة العلم-، إذ يعطي مفاتيح وأضواء في كل العلوم ليبني عليها الناس وينطلقون منها دون أن يقفوا عندها... إنه كتاب الله المبين لكل شيء ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٣٨)...

وهو كذلك كتاب أدب وبلاغة وبيان معجز، لا يستطيع البشر الوصول إلى الإتيان بسورة من مثله.

وقد فتح الله على بديع الزمان سعيد النورسي، فقدم من فيض القرآن وتجلياته رسائلَ النور حجة قرآنية عصرية على العقل والإنسان المعاصرَين، وعلى الحضارة الحديثة.

ولد سعيد في تركيا سنة ١٨٧٦م ومات سنة ١٩٦٠م... أي إنه عاش نيفا وثمانين سنة... كانت كلها علما وفقها وجهادا... أبوه اسمه ميرزا، كان رجلا صالحا يتجنب الحرام.. وكانت أمه "نورية"... وقريته "نورس" التابعة لقضاء خيزان من أعمال ولاية بتليس.

وقد ساقته الأقدار إلى أن يترك كل الدواعي السياسية والاجتماعية والاقتصادية... فترك أمجاد الدنيا مع أنها ألحت عليه، وترك بناء الأسرة، وترك تكوين ثروة مع أنها عرضت عليه... وساقه الله إلى الحياة مع القرآن وحده.. إلى رسائل النور...

الرسائل التي تُقدم علم الإسلام، ووسائلَ تَقدم المسلمين، وعودتِهم لدينهم عودة عصرية قائدة منتصرة... متبوعة لا تابعة... شهيدة على الناس لا متسولة أو منهزمة أمام الناس.. تقدم ذلك وغيره بأروع الأساليب... المقتبسة من نور القرآن.

الأسس الفكرية لعالمية الأدب عند النورسي

لم يفصل بديع الزمان سعيد النورسي (١٢٩٠-١٣٧٩هـ) (١٨٧٦-١٩٦٠م) في فكره -انطلاقا من فقهه للطبيعة القرآنية- بين ما هو ديني، وما هو دنيوي، وبين ما هو متصل بالعقيدة (التوحيد ومقتضياته الكونية والعبادية) وما هو عقل

متصل بالشريعة، وما هو وجدان متصل بالقلب والأدب والفن، وما هو أخلاق ونظرة للإنسان والكون والحياة يلتقي مع كل ذلك ويتداخل معه.

وفي رسائل النور -انطلاقا من المنهجية القرآنية- لا تجد فواصل قاطعة، ولا تجد منهجية مدرسية أو أكاديمية تقدم لك المعارف أو القضايا عبر سلسلة أو حلقات من الأبواب والفصول والمباحث، بل تجد انسيابا هنا يلتقي مع انسياب هناك، قد يكون التركيز في جانبِ إبراز عقيدة التوحيد، لكن الاعتماد في تأكيد هذه الرؤية الإيمانية القرآنية النورسية يقوم على حقائق الكون والإنسان والفكر الرصين وتجليات أسماء الله الحسنى في الكون والإنسان (الأنا الإنسانية التي تمثل مرآة أسماء الله الحسنى ونقطة تجلياتها)... ولأن الاعتماد في الرؤية الإيمانية يقوم على أساس هذه النظرة الشمولية غير التقليدية، فإنه بالتالي يعتمد في عرضه على أسلوب لا يمكن أن يكون أسلوباً رياضيا أو علميا خاليا من الروح والفكر الروحي، وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يكون أسلوبا أدبيا بلاغيا إنشائيا؛ حسبه أن يقرعَ الأذن، ويحركَ العاطفة، ثم لا يتركَ أثرا في توجيه الصياغة السلوكية الفردية أو الاجتماعية في الحياة، وكأنه أقرب إلى الشعر بمفهومه عند أكثر المحدثين والحداثيين.

إن "الأدب" -انطلاقا من المنهجية القرآنية التي انطلق منها النورسي- يجب أن يكون "كالعلم" في انضباطه بالحق وفي توظيفه توظيفا يتكامل مع "العقل" أو مع العلم- في خدمة الدين والحق والحياة الإنسانية الكريمة اللائقة بإنسانية الإنسان.

ولئن كان العقل والعلم يخاطبان جانبا ضروريا ومهما في كيان الإنسان، فإن الأدب والوجدانيات يخاطبان كذلك الجانب الآخر المهم للحقيقة الإنسانية.

وقد دفعت حضارة المسلمين في قرونها الأخيرة ثمنا غاليا عندما فقدت التكامل بين الجانبين، وأهملت جانب العقل والعلم ومقتضياتهما، ولسوف تدفع الحضارة المادية (الأورو-أمريكية) الحديثة ثمنا باهظا لإهمالها دور الأدب والوجدان والروح بطريقة أخلاقية توازنية إيجابية إنسانية..

ولئن كانت المنظومات الحضارية اللائقة بالإنسان والضامنة لسلامة مستقبله الحضاري تقتضي التكامل بين لغتي العلم والأدب، وبين قضاياهما، وآلياتهما في الحدود المقبولة منهجيا، وأهدافهما الوظيفية الإنسانية والكونية والإلهية.. كما الرؤية النورسية التي عبرت عنها بتفصيل ووضوح في رسائل النور...

لئن كان الأمر كذلك، فإن المعرفة الحقة الصحيحة الكفيلة بتحقيق سعادة جنس الإنسان لن تتحقق -كذلك- إلا من خلال الترابط والتكامل بين المعرفة الكونية، الشاملة للوعي بالنواميس والعلوم الطبيعية وتسخيرها، والمعرفة الإنسانية المعبرة عن مفردات الكينونة الإنسانية، وكل ما يتعلق بها باطنا وظاهرا، والمعرفة الإلهية التي تربط بين وجود الله وتوحيده وربوبيته وتجليات أسمائه الحسنى في خلقه وفي كونه.

ومن حقنا -بل من واجبنا- أن ننبه إلى التكاملية في الرؤية النورسية بين العقل والعلم -من جانب- والأدب والوجدانيات -من جانب آخر-، كما أنه من حقنا أن نشير إلى التكاملية في "نظرية المعرفة النورسية" إلى التكامل بين ما هو كوني يعتمد على العقل والعلم، وإنساني يعتمد على القلب والروح وأدواتِ الأدب والفن، وإلهي مصدره الوحي، يقود الجانبين السابقين إلى تحقيق السعادة الحقة للإنسان الفرد والإنسان المجموع صانعِ الحضارة، ويمكن الإنسان من أن يكون إنسانيا وربانيا مترجما من خلال الأمانة التي عرضها الله ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾(الأحزاب:٧٢)... "بالأنا" -أي بالشعور بالوجود والإرادة، وبالقدرة على تمثل معظم أسماء الله الحسنى في الكون... كما تمثل المرآة الكائناتِ التي تظهر أمامها.

وفي ضوء هذا تتعاشق المعارف الثلاث فيما بينهما (الكونية، والإنسانية، والإلهية) كما تتعاشق زوايا مثلث الأضلاع، تقوم قاعدته في أحد طرفيها على المعرفة الكونية، وعلى المعرفة الإنسانية في طرفها الآخر، بينما تعلو قمتَه "المعرفةُ الإلهية".[1]

(١) نظرية المعرفة عند النورسي، أديب إبراهيم الدباغ ص٧٥؛ ضمن أعمال المؤتمر العالمي الثالث حول تجديد الفكر الإسلامي في القرن العشرين عن النورسي. تركيا ١٩٩٦.

ولعلنا من خلال هذه الرؤية التكاملية نعرف موقع الأدب ورسالته في فكر النورسي... ونعرف أيضاً طبيعة الرؤية النورسية الشمولية القرآنية.

ولكي يتعامل المسلم مع الكون والحياة -في الرؤية النورسية- لابد له من تحريك طاقاته كلها، أي كيانه كله، أي ملكاته العقلية والروحية والوجدانية... فإن تحريك طاقة العقل وحده بالعلم، أو القلب وحده بالأدب والفن، لن تحقق الرؤية الصحيحة القادرة على النفاذ إلى أعماق الكون، فمن الضروري أن تتحقق الرؤية الشمولية التي لا تمنع اعتماد السببية في شؤون الحياة، ولا تمنع كذلك من نفاذ الرؤية الإيمانية بعيدا عن قفص السببية، في محاولة لاختراق الجدران الصلبة للسببية انطلاقا إلى الأبد اللامحدود، ذلك الذي نسمع قوانين إيقاعه في جنبات الروح والوجدان؛ حيث تعجز السببية عنه وتنكفئ دونه... ولهذا فإن النورسي لا يرى في عالم "الشهادة" الكثيف معضلة ما تُفقد بصيرتَه الروحية قدرتَها على النفاذ إلى "عالم الغيب" وراء هذا الكون... بل إن عالم الشهادة يشكّل في حسه لوحة إعجازية خارقة في إعجازيتها، رسمتْها وأبدعت فيها يد المبدع البارئ القدير ﷻ، غير أنه -أي عالم الشهادة- يظل رمزا وإيماءً وظلا يدل بشبحيته وظله على عالم أجمل وأقدس وأروع؛ أبدي لا نهائي؛ ينتظر عيون المؤمنين الوالهة الشغوفة بالجمال.(١)

وبقدر ما في نفوسنا من توق وحنين فطري إلى مشاهدة الجمال والأنس به، كذلك فإن الجمال نفسه يبادلنا هذا الشوق، ويطلب لنفسه صفوة من المشاهدين الذواقين الذين يحسنون المشاهدة.

ويوضح النورسي هذه العلاقة بين الإنسان "المشاهِد" وبين إبداع الله في الكون "المشاهَد" فيقول: "من الحقائق المستقرة الثابتة أن كل ذي جمال فائق يحب أن يشاهد جماله بنظره وبنظر غيره، وينظر إلى محاسنه بالذات وبالواسطة، ويشتاقُ إلى مرآة فيها جَلْوة جماله المحبوب، وإلى مشتاق فيه مقاييس درجات حسنه المرغوب؛ فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد،

(١) المصدر السابق ص٧٩.

وهما يقتضيان وجود مستحسِنين متنزهين في مناظرهما، ووجود مشتاقين متحيرين في لطائفهما".[1]

وعن هذا الإيمان الذي تؤكده المعرفة، والمعرفة التي يقويها الإيمان، وعن التجاذب بين المشاهِد والمشاهَد، وبين ما هو عقلي عملي، وما هو وجداني أدبي يحدثنا أحد طلاب رسائل النور قائلا: "كنت أحس فراغا كبيرا في نفسي، وفي روحي، وبينما كنت أبحث عن كتاب لأقرأه وجدت رسائل النور التي ما إن قرأتها حتى علمت بأنني لن أستطيع بعد مفارقتها، إذ أحسست بأنها هي التي تسد هذه الحاجة القلبية لدي، لأنني وجدت فيها البراهين والأدلة العقلية والإيمانية المنقذة من الشبه العلمية والإيمانية، وتخلصت بذاك من القلق ومن الضيق الذي كانت الشبهات تُحْدثه وتولده في، وأدركت من هذه الحقائق أن رسائل النور كتبت لإنسان هذه العصر.

وقد أحسست أن إيماني يقوى كلما قرأتها، وهذا أنقذني من السقوط في هوة الضلالة، وأنقذني من العدوان على ديني الجامع لكل جوانب الحق والحقيقة، وهما أسسُ أرقى مدنية، وأنقذني من أن أكون لقمة سائغة يلتهمها الوحش الأحمر.[2]

إننا نرى هنا -في أسلوب تلميذ النورسي- رشحا لأسلوب النورسي نفسه، فهو أسلوب علمي أدبي عقلي روحي ووجداني في نسيج واحد. لقد كان من بديهيات الأمور -ولا بد- أن يكون خطاب النورسي عالميا بطبيعته، لأنه ما دام قد وهب نفسه لخدمة الكلمة القرآنية والحقيقة القرآنية والبيان القرآني، فلا بد -بالتالي- أن يكون خطابه عالميا... عالميا في فكره، وعالميا في أسلوبه وأدواته البحثية، وعالميا في جانبه العقلي والعلمي، وعالميا في خطابه الأدبي وأساليب تعبيراته وتخيلاته الأدبية والفنية.

كان النورسي ينفر من التحزب والفرقية والطرقية، فقد ابتعثه الله -كما ابتعث كثيرا من المجددين والمصلحين- لينقذ حقيقة إنسانية عالمية وهي الحقيقة

(١) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان النورسي ص٩٢، دار سوزلر، ط١، ١٤١٥هـ، القاهرة.
(٢) الشعاعات، بديع الزمان النورسي ص٥٩٠-٥٩١، دار سوزلر، ط٢، ١٤١٤هـ، القاهرة.

الإيمانية. فحتى لو كان خطابه للأتراك أو للعرب أو للفرس أو للأكراد، فإنه إنما كان يخاطبهم لينبههم إلى طبيعة رسالتهم التي ارتضوها حين ارتضوا الإسلام دينا، والقرآن منهجا، ومحمدا ﷺ نبيا ورسولا.

إنها الطبيعة العالمية الإنسانية الإسلامية... أليس الله قد خاطب نبيه محمدا بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧)، وبقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾(سبأ:٢٨).

فعلى المسلمين مهما كانت أجناسهم أو أوطانهم أن ينتبهوا إلى أنهم حَمَلة الراية بعد أستاذهم ومعلمهم محمد ﷺ، وعليهم أن ينتبهوا إلى أن الأمانة التي ائتمنهم الله عليها، وهي "البلاغ للناس" "بالقرآن" إنما هي نور للناس جميعا إذا آمنوا بها، لا فرق بين أسود وأبيض.. يقول الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

فالمهم -لكي يتحقق النور- أن يتبعه الناس.

وعندما عرض سعيد النورسي -من خلال رسائل النور- الرؤيةَ القرآنية في حل مشكلات العصر الحديث، لم يعرضها لتحل المشكلات في الدائرة الإسلامية أو التركية أو العربية وحدها، وإنما عرضها ليحل بها مشكلات الحضارة المادية والأوروبية كلها... تلك الحضارة التي حبسها "العقل" في إطار "المادة" و"المنفعة" و"النسبي"، وأصبحت عاجزة عن إدراك الكمال والجمال في الروح والمطلق والغيب وضرورةِ الإيمان بها للكينونة الإنسانية... ولاستمرار التحضر الإنساني العام.

ولقد أصاب هذا العجزُ الحضارةَ الإنسانية بالشلل النصفي، لأن الروح أو الغيب أو المطلق لا ينفصل عن العقل والمادة والنسبي... ولأن "المطلق" هو "المعيار" الأساسي للحق. ورفضُ التعامل معه رفض للسير في طريق الحق، تحت ضغط الإيمان المشلول بالمادة والنسبي.

وهو المؤدي إلى عبادة الإنسان نفسه، بديلا عن عبادة الله الذي يؤمن

المسلمون بأنه وَضع للكون والإنسان نظاما من خلال الوحي والأنبياء، وهو نظام متطابق مع فطرة الإنسان وذوقه وعواطفه التي يتعامل معها الأدب بأجناسه المختلفة شعرا أو نثرا بالدرجة الأولى.. وهو (أي الأدب والعاطفة والفن) -قبل العقول وعلومه- مسؤول عن تغذية الوجدان بالجمال وعشقِ الصدق وملكة البحث عن الحق، من خلال أعماق الإنسان الداخلية، والنفحات الربانية التي أتى بها المرسلون من الله.

ويكمن الخير الأسمى للإنسان -كل إنسان- في أن يتوافق مع نفسه وفق هذا النظام الإلهي... ويعدَّ الشر هو كل ما من شأنه أن يمنع التوافق مع هذا النظام. ويظهر الإسلام من هذا المنظور الأساسي -كما يقول مارسيل بوزار صاحب كتاب إنسانية الإسلام- دين اليقين والتوازن.

فلقد كان الإسلام -بحق- حافزا على تشكيل كيان متميز لم تستطع تقلباتُ الزمن والاحتكاكُ بالحضارات المختلفة أن تفت في عضده على مر العصور... فإن كل شيء في الإسلام يشكل وحدة، ويعبر في الوقت نفسه عن وحدة، ففروض العبادة تعبر بطريقة ظاهرة بل بطريقة مادية عن التماسك والالتحام، فالمسلمون يسجدون في صلواتهم خمس مرات يوميا في ساعات متماثلة تقريبا، وفي اتجاه واحد نحو الكعبة.

وتعبِّر النية الدينية المصاحبة للعبادات لكل شعيرة عن وحدة الإنسان روحيا وماديا. ويسهم الإيمان أيضا كما تسهم الشعائر في تضامن الجماعة الإسلامية وتجانسها، وتدفعها جميعا نحو تحقيق عالميتها.

إن جماعة المؤمنين -وقد قامت على الدين- نجحت في الصمود أم التفكك السياسي، كما أن الروابط الدينية التي تسمو فوق التخوم والحدود بين الدول، لم تتأثر كثيرا بذلك التفكك السياسي.[1]

ويقول الكاتب والصحافي السويسري الكبير الذي هداه الله إلى الإسلام

(١) الحضارة الإسلامية وجهتها لله والحضارة الغربية مركزها الإنسان، أحمد عبد الوهاب ص٦٢، ٦٣، دار الصحيفة، ١٩٩٩م، القاهرة. (نقلا عن بوزار)

"روجيه دي باسكيه": "لقد جاء الإسلام إلى الناس لمساعدتهم على عبور هذه المرحلة الأخيرة من التاريخ العالمي دون أن يتعرضوا للضياع. وباعتباره الوحي الأخير في سلسلة النبوات، فإنه يقدم وسائل لمقاومة الفوضى التي تسود العالم حاليا، وإقرارِ النظام والنقاء في داخل الإنسان، وإيجادِ التآلف والانسجام في العلاقات الإنسانية، وتحقيقِ الهدف الأسمى الذي من أجله دعانا الخالق إلى هذه الحياة... إن الإسلام يخاطب الإنسان الذي يعرفه معرفة عميقة ودقيقة، محدّدا بالضبط وَضْعَه بين المخلوقات وموقفه أمام الله".[1]

إن الفكر الحديث -كما يتابع باسكيه حديثه- على العكس من ذلك، إذ ليس لديه معلومات دقيقة متفق عليها تتعلق بعلم الإنسان، ولم يَحدُث في حضارة أخرى غير هذه الحضارة الغربية أنْ حدث تجاهل بطريقة منظمة وشاملة للتساؤل عن الأسباب التي من أجلها نُولَد ونعيش ونموت. ذلك هو التناقض الذي وقعت فيه هذه الحضارة التي ارتأت منذ نشأتها أن تكون إنسانية، بمعنى أنها جعلت من الإنسان مصدر كل شيء ونهايته. إن هذه الحضارة التي أريد لها أن تكون إنسانية، إنما هي تقود في الوقت نفسه إلى نظام يحتقر الإنسان ويخدعه، ثم يدمره في نهاية المطاف.

إن الإسلام بأبعاده الأفقية والرأسية قادر على عمل توافق بين الإنسان والكون المحيط به، وكذلك بين الإنسان واللهِ خالقِ كل شيء ومبدعِه. إن الإسلام عالمي بكل معنى الكلمة.[2]

وفي يقيننا أن رجلا مثل "باسكيه" لو أطلع على عَرْض رسائل النور لقضايا القرآن بهذا الشمول الأفقي والرأسي، وبهذا المنهج العقلي والكوني، وبهذا الأسلوب البلاغي والبياني، الحافل بالصور والأخلية، والتمثيل والأمثلة التي تشبع الوجدان، وتغذي العقل في آن واحد..

في يقينا أن "باسكيه" وأمثاله من السائرين في طريق الحق لو عرفوا رسائل

(١) المصدر السابق ص٦٣.

(٢) المصدر السابق ص٦٤-٦٥.

النور لجعلوا نشرها بين الناس وتوجيهَ الناس إليها هدفا أساسياً من أهدافهم.. لأنها تقدِّم بتفصيل واف وكاف كل ما يعبرون عنه بكلمات مجملة، -لكنها واضحة- وإن احتاجت إلى تأصيل وتفصيل.

رفض النورسي للآداب العنصرية واللادينية

كان أمرا منطقيا -في ضوء الأسس الفكرية والمنطلقات العقيدية والمرجعية القرآنية الثانية- التي أقام عليها بديع الزمان النورسي قواعد فكره وإطارَ رؤيته للحياة والإنسان والكون...

كان أمراً منطقيا أن يرفض النورسي كل الآداب المنطلقة من رؤية مادية، أو عنصرية قومية، أو وطنية محدودة، أو إلحادية فوضوية، أو وجودية عبثية دنيوية... فكل هذه النعرات الأدبية تعكس رؤية رافضة للنظام الكوني الذي تشهد كل جزيئاته -بلسان الحال والمقال- بوحدانية الله الخالق وقدرته وسمو أسمائه الحسنى وتجلياتها...

وعندما شب النورسي عن الطوق -في تركيا- مع بدايات القرن العشرين، كانت هناك بقايا ذات حضور أدبي ممثلة في الأدب الديواني المتأثر بالأدبين العربي والفارسي، والذي يُعرف بالأدب الإسلامي، ويعالج بعض قضايا الوجدان بطريقة صوفية، ويلتزم بالعَروض في شعره، ويبتعد عن العشق الحسي والمادي...[1] ولعل هذا الأدب -فيما نرى- كان أكبر ما تأثر به النورسي.

وخلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين ظهر -أول ما ظهر- تيار أدبي يجنح إلى التغريب والذوبان في الغرب جملة وتفصيلا دون غربلة أو تنقية، وقد عُرف هذا التيار في تركيا باسم تيار "ثروت فنون" نسبة إلى جماعة التفت حول مجلة كانت تصدر بهذا الاسم... لكن سرعان ما ظهر تيار تغريبي آخر -بطريقة أخرى- هو تيار "القومية الطورانية" التي لا تظهر -بوضوح في بدايات أمرها- الخيانة العلنية للإسلام، لكنها عمليا لا تجعل له نصيبا في أدبها.

(١) الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي سعيد النورسي، د. سمير رجب محمد ص٧٨، دار سوزلر، ١٩٩٥- ١٤١٦، القاهرة.

وكان أبرز شخصيات هذا التيار "ضيا كوك آلب" الذي بدا تأثره الواضح بالقومية بمعناها الألماني الرومانتيكي العنصري.

وقد اتفق مؤرخو الأدب التركي على تسمية أدب هذه الفترة بالأدب القومي التركي، فكل ما كتب فيها كان يتناول الأمة التركية، تركيا فحسب، مع تأثر واضح كان يزداد مع مرور الزمن بالنزعات التغريبية.(١)

ومنذ عام ١٩٤٠ ظهر ما يمكن تسميته بالأدب الحديث والمعاصر، من خلال تيارات سياسات ثلاثة عمدت إلى توجيه الأدب، وهذه التيارات هي: "الكمالية" التي تدعو إلى نبذ كل ما هو إسلامي والارتماءِ في أحضان أوربا... والتيار القومي الذي يدعو إلى الطورانية مع مزجها بشيء من الشرق وروحانياته، وشيء غير قليل من الغرب أيضاً، وكأنه يحاول تمييز تركيا في إطار الحداثة والعلمنة... وأما التيار الثالث فكان التيار الاشتراكي المساير للتيار الشيوعي العالمي.

وقد رفض بديع الزمان سعيد النورسي هذه التيارات الأدبية كلها، لأنها -في حقيقتها- تقوم على رفض الإيمان بالله والدين كله، ولا تهتدي بهدي الأديان السماوية، وتنكر الألوهية صراحة أو ضمنا، وتقيم الفلسفة المادية مقام الخالق والدين المنزل...

وفي تحليله لحقيقة المذاهب الأوربية التي انطلقت فيها تيارات التغريب الأدبي الوافدة على تركيا والشرق الإسلامي يرى النورسي أن الرومانتيكيين أقاموا الفلسفة الوضعية مقام الدين، بينما جعل الواقعيون المادة أصلا وخالقا بدلا من الخالق العظيم... أما الطبيعيون فقد أسندوا القوانين الحاكمة في الكون لوهمٍ اسمه "الطبيعة" لعدم معرفتهم بالله، وادَّعوا أن الإنسان أصله قرد.(٢)

وفي مواجهة هؤلاء جميعا، وتعميقا لفرض رؤيتهم الإلحادية والمادية الفاسدة يتحدث النورسي عن هذه الطبيعة العمياء والصماء التي يريدون تأليهها، فيقول بأبلغ كلام مستوحى من إعجاز القرآن البلاغي:

)١) المصدر السابق ص٨٧، ٨٨.

(٢) المصدر السابق بتصرف٩١-٩٢.

"إن الطبيعة ليست طابعا بل مطبعة، وهي ليست نقَّاشة بل نقشا، وليست فاعلة بل قابلة، وليست مصدرا بل مسطرا، وليست ناظما بل نظاما، وليست قدرة بل قانونا، إن الطبيعة شريعة إلهية، وليس لها حقيقة خارجية".[1]

ويقول النورسي أيضاً: "لا يمكن لأي صدفة التدخلُ في هذا الكون الذي خُلق بدقة وحكمة، وصُنع بنظام وترتيب وبتدبير خارق، ولا يمكن لأي قوة عمياء ولا للطبيعة الحمقاء أن توجِد مثل هذا التوازن، كما لا يمكن للصدفة العشوائية أن تشكِّل الكون من تلقاء نفسها، فلابد أن يواجهها مائة محال في كل مجال، ولكي يتحقق ذلك لابد أن تَعلم كلُّ ذرة بكل شيء وكلِّ ما يتعلق بهذا الشيء في العالم، فإذا علمتْ يتسنى لها أن تَصنع، ولا يتأتى للذرة هذا أبدا إلا إذا أعطيتْ قدرةً إلهية وعلما محيطا بكل شيء، وحينئذ يمكن أن يسنَد تشكيلُ الأشياء إلى الذرة وإلى الجسد نفسه".[2]

وبأسلوب آخر يقول بديع الزمان في "رسالة الطبيعة": إذا لم يسنَد هذا الكون المنظم والمصنوع بحكمة وموازين دقيقة إلى القدير الحكيم المطلق، وأُسند إلى الطبيعة فلابد من وجود عدد من الماكينات بعدد مصانع أوروبا في قطعة أرض لكي تصبح هذه القطعة من الأرض منبتا لأنواع الزهور، لأن قطعة الأرض هذه، لو ألقيت فيها بذور جميع أنواع الزهور، لأَخرجت كل بذرة نباتها دون اختلاط بينها، مع أن كل زهرة تختلف عن سائر الزهور... وإذا لم يسند هذا الأمر إلى الله القادر ذي الجلال، فلابد من وجود ماكينات بعدد أنواع الزهور في هذه القطعة من الأرض، وإلا فلا يمكن لهذه الزهور أن تَنبت، وظهور هذه الزهور يُثبت -بداهةً- وجودَ مَصانع وماكينات معنوية ومطابع صغيرة جدا، وإلا فلا يمكن أن تنسج النباتات والأشجار هذا النسيج الحي.[3]

وفي تعريف الطبيعة يقول النورسي: "إن الطبيعة هي صنعة إلهية وليست

---

(١) المكتوبات: ص٦٠١ ط٢، ١٤١٣هـ.

(٢) نقلا عن الفكر الأدبي، د. سمير رجب ص٩٤.

(٣) الكلمات، بديع الزمان النورسي ٦٤٥؛ وانظر د. سمير رجب المصدر السابق ص٩٤ وما بعدها.

بصانع... كتاب رباني وليست بكاتب... نقش ولا يمكن أن تكون نقاشا... دفتر وليس "دفتر دارا"... قانون وليست قدرة".[1]

ومن جانب آخر نجح -النورسي- في مواجهة تيارات الأدب التركية التي استوردت عناصر قلبها وعقلها من تيارات الأدب الأوروبي التي ضرب النورسي أسسها العقيدية حين ضرب رؤيتها للطبيعة والمادة والإنسان والكون...

لقد قاوم النورسي هذه التيارات بأساليب متعددة، قرآنية، وعصرية، صامدا وكاشفا محاولاتها اللاأخلاقية لتطويع الأدب ليكون أداة لنشر الأفكار الإلحادية والجنس والعهر، فيما يسمى "الأدب المكشوف" كما أنه -في الوقت نفسه- قاوم ظاهرة تغريب التعليم، وإلغاء التعليم الديني، فضلا عن مقاومته لاستبدال النعرة القومية بالدين على النحو الذي بسطنا فيه القول من قبل.

وقد كانت مقاومة النورسي قوية واثقة، وذلك في وقت اشتد فيه النشاط المحموم لحركة التغريب بحيث أذهلت كثيرين، وأحبطت كثيرين، وساقت في ركابها عددا من المهزومين من الداخل، من علماء الدين وأشباههم، بينما وقف النورسي شامخا مسلحاً بالقرآن فكرا وأدبا ومنهجا، وذلك من خلال قدرة صناعية وعقلية خاصة أكرم الله بها النورسي!.

لقد كان النورسي واحدا من أولئك الذين تصدوا لهؤلاء المستغربين وكشف خباياهم، وقد خاطبهم قائلا: "إن تصوير الأباطيل تصويرا جيدا إضلال للأذهان الصافية"... إنه نوع من نشر الفاحشة بواسطة الفن والأدب... والفن والأدب بريئان من هذا الأسلوب.

وهو يفضح أساليبهم على نحو أوضح بأسلوب بالغ السخرية... يقول:

"لقد وضع الظلم على رأسه قلنسوة العدالة، ولبست الخيانة رداء الحمية، وأطلق على الجهاد اسم البغي، وعلى الأَسْرِ اسم الحرية، وهكذا تبادلت الأضداد صورها".[2]

(١) المكتوبات، بديع الزمان النورسي ص٦٠١.

(٢) المكتوبات، بديع الزمان النورسي ص٦٠١.

وإذا تركت الأمةُ عقولُ أبنائها ووجدانهم مستباحة لدى الآخرين، ليبثوا فيها سمومهم بحجةِ حرية الثقافة، وحرية المعلومات، حرية الاختيار، وخصوصا لدى النشء الجديد الذي لا حصانة لديه ولا معرفة له بأساليب الآخرين، فالنتيجة ستكون وخيمة، والكارثة ستكون فادحة.

وقد فند النورسي هذه التيارات الأدبية المبطنة بالفكر الغربي بعشرات المقالات والمباحث الباهرة التي كان يقارن فيها بين المدنية الغربية المادية، والمدنية الإسلامية التي تسد حاجات الإنسان المادية، وترضي أشواقه الروحية، وذلك على العكس من أسس المدنية المعاصرة!!!

ويقول الأستاذ النورسي في "المثنوي العربي النوري" لأولئك الأتراك المسلمين المستغربين: "إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق، وأكثر الفلاسفة في الغرب، رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقومه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة".[1]

ويهاجم ذلك التيار البدعي المترشح من الجانب الخبيث للحضارة الأوروبية، ويبشر باضمحلال ذلك التيار الذي سوف تسفيه الرياح، وينبههم إلى أنه "ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي مع التهاون في الدين".[2]

وفي الوقت الذي يواجه فيه النورسي التيارات التركية المستغربة، يقف كذلك مدافعا عن "إسلامية الأدب" وعن رسالة العالمية... قائلا للمنهزمين أمام التيارات الأدبية والفكرية الأوروبية.[3]

"إن الحضارة الغربية صارت مغلوبة أمام إعجاز القرآن وحكمته وبلاغته، وكذلك فإن الأدب الغربي صار مغلوباً أمام الأدب الإسلامي وبلاغة القرآن، إن منزلة الأدب الغربي بالنسبة للأدب القرآني كبكاءِ يتيم بحزن مظلم خال من الأمل، أو كعويلِ وغناءِ سِكّير بالنسبة إلى غناء عاشق، لأن الأدب والبلاغة

(١) المثنوي العربي النوري ص٢٠١.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٢.

(٣) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٤٧٦.

باعتبار تأثير أسلوبهما؛ إما ينتج الحزن أو الفرح. والحزن ينقسم إلى قسمين:

الأول: في فقد الأحباب، وهذا الحزن مظلم ومحطم للأمل، وفيه ضلالة وغفلة وعبادة للطبيعة، وهذا ما أنتجه الأدب الغربي الحضاري من الحزن.

الثاني: الحزن لفراق الأحباب؛ بمعنى أن الأحباب موجودون، ولكن ينشأ الحزن من فراقهم وذلك شوقا لهم، وهذا الحزن يعطي للبشر الهداية والنور وهذا هو الحزن الذي يعطيه القرآن الكريم.

أما الفرح فهو أيضاً على قسمين:

الأول: يشوّق النفس إلى الحب؛ وهذه هي الحضارة الغربية المتمثلة في السينما والرواية (أمثال أفلام اليوم).

الثاني: الفرح الذي يهدئ النفس ويشّوق الروح والقلب إلى الوطن الأصلي (الجنة) والمقر الأبدي والوصول إلى الأحباب الآخرين؛ تشويقا مؤدباً معصوماً، وهذا الفرح الذي يشوق الإنسان إلى الجنة والسعادة الأبدية ورؤية جمال الله هو الفرح الذي يعطيه القرآن العظيم للبشر.[1]

إنه أدب متعامل مع الله العظيم، ومع الكون الفسيح، ومع الدنيا والآخرة

أما الأدب الأوروبي فمجاله الفاني والحس والقوة الظالمة...

يقول النورسي: "إن الأدب الأوروبي لا ينعم بالاحترام والإجلال مثلما ينعم به القرآن الكريم، ولا يمكن أن يجعل ميراثه مقياسا للأدب القرآني، إن للأدب ثلاث ساحات يجول فيها ولا يمكن أن يجول خارج هذه الساحات وهي "العشق والحسن" أو "البطولة والبسالة" أو "تصوير الحقيقة".

وإن الأدب الغربي من ناحية البطولة لا يتمسك بالحق بل يؤيد الظلم ويعلم القوة بدلا من الحق.

ومن ناحية الحسن والعشق لا يعرف العشقَ الحقيقي بل هو يثير الشهوات

(١) المصدر السابق ص٤٧٦، ٤٧٧ وأنظر: د. سمير رجب محمد: بديع الزمان سعيد النورسي ص٩٧، ط٢، ١٩٩٥- ١٤١٦.

في نفوس البشر، ولا ينظر إلى الكون بنظرة العبرة ولا يصبغه بصبغة إلهية، ولهذا الأدب طريق واحد وهو الرواية و"الحي الميت" أي الكتاب، والأموات المتحركة أي السينما ولا يمكن أن يعطي الميتُ الحياة...

وهذا الأدب قد جعل في فم البشر لسان الكذب، وفي وجهه عين الفسق وألبس الدنيا لباس الرذيلة فلا يعرف الحسن المجرد".[1]

(١) الكلمات، بديع الزمان النورسي ص٤٧٧، المصدر السابق ص٩٨ (نقلاً عن ٦٨٠-٦٨٧ Sözler).

obeikandl.com